# دور مصر فى بناء الحوار بين الحضارات - آفاق المستقبل

**د. رءوف عباس**

إن الهدف الأسمى للحوار بين الحضارات هو إيجاد المناخ الملائم الذى يتيح لشعوب العالم فرصة الحياة معا فى أمن وأمان، وسلام وتعاون من أجل خير البشرية جمعاء. ولعل الحضارات على إختلاف أصولها ومنابعها وطبيعتها تتفق جميعا فى تبنى قيم سلوكية إنسانية تعلى من شأن حسن الجوار، وقد إتسع مدلول الجوار مع تطور التكنولوجيا فى نهاية القرن العشرين ليتجاوز حدود الجوار المادى الإقليمى إلى الجوار المعنوى الكوكبى، بعدما أصبح العالم "قرية كونية" بفضل الغزو الإلكترونى للفضاء الذى أدى إلى إختصار المسافات والزمن، فالأقمار الصناعية التى تطوف حول الأرض فى مداراتها الفضائية خلقت ثورة فى الإتصالات، وفى الإعلام والمعلومات جعلت من الشعوب المنتشرة فى أرجاء المعمورة جيرانا، كما أن التطور الكبير الذى شهده النظام الإقتصادى العالمى، وخاصة فى مجالات الإستثمار والتنمية والتجارة. ربط بين الأسواق الوطنية بشبكة من المؤسسات الدولية المتعدية للقوميات transnational جعلت الإقتصاديات الوطنية تستجيب سلبا وإيجابا لكل ما يقع فى السوق الدولية التى تشابكت على بعد المسافات أطرافها، فأصبحت تتأثر جميعا رخاء وكسادا تأثر الجار الجنب بما يحدث عند جاره.

فإذا أضفنا إلى ذلك المشكلات البيئية التى تؤثر على عالمنا، والحركات الإنسانية والإجتماعية التى تبذل جهودا مضنية من أجل تحرير المرأة أو حماية حقوق الإنسان، أو مقاومة الأوبئة، كل ذلك فى إطار مؤسسات المجتمع المدنى الدولية، أدركنا أن علاقة الجوار التى تربط شعوب الأرض ببعضها البعض أصبحت ترقى إلى مستوى التكامل والإحساس المشترك، مما يستوجب من شعوب العالم ضرورة البحث عن صيغة جديدة لحسن الجوار فى عالم تجاوز فيه التطور الحدود الجغرافية والسياسية، نتيجة تآكل الحدود المادية وغيرها من الحدود التى تفصل بين المجتمعات والثقافات والدول، بفعل موجات التغير الفكرى والتكنولوجى.

لذلك عندما نضع تصورا لآفاق المستقبل بالنسبة لدور مصر فى بناء الحوار بين الحضارات، يجب أن نضع فى إعتبارنا كل تلك التغيرات التى تدور حول محور حسن الجوار بما يتضمنه من تعاون رحب من أجل خير شعوب العالم كهدف أسمى للحوار بين الحضارات.

وهنا نرى أن مصر مهيأة للعب دور مركزى فى بناء الحوار بين الحضارات لسببين رئيسيين، أحدهما يتصل بطبيعة مصر، وثانيهما يتصل بدورها التاريخى الهام كمركز مؤثر للحضارة العربية الإسلامية. أما السبب الأول فيتمثل فى ما جبلت عليه مصر من تقبل الآخر الحضارى، ومواصلة علاقة جدلية فريدة معه، تنتهى دائما بالتواصل والتمازج والإستيعاب، وهى خاصية فريدة جبلت عليها مصر منذ كان لها فضل الريادة فى صناعة الحضارة، ولعل ذلك يفسر ظاهرة الإستمرار الحضارى عميق الجذور. فقد تواصلت مصر مع حضارات العالم القديم وإمتزجت بها وإستوعبتها، وكانت قطبا موجبا فى صناعة الحضارة الهلنستية، بل أثرت فى الحضارة الرومانية تأثيرا ملحوظا، ولعبت دورا هاما فى صياغة الحضارة المسيحية فى قرونها الأولى. فخاصية التواصل والتمازج والإستيعاب فى مواجهة الحضارات الأخرى ترشح مصر للعب دور مركزى فى بناء الحوار بين الحضارات.

أما السبب الثانى الذى يزكى ترشيحها للقيام بهذا الدور الهام فيتمثل فى كونها القلعة الحصينة للحضارة العربية الإسلامية لا فى إطارها التراثى فحسب، بل على مر التاريخ منذ تواصلت مصر مع الحضارة العربية الإسلامية وإمتزجت بها ثم إستوعبتها وأعادت صياغتها بصورة عبقرية، مرتكزة على تراثها الحضارى القديم. وعلى أرض مصر إلتقت وإمتزجت مكونات الحضارة العربية الإسلامية وتفاعلت مع بعضها البعض لتخرج فى إطارها التراثى المعروف. إمتزجت حضارة المشرق والمغرب على أرض مصر زمن سلاطيم المماليك، ولعبت مصر دور البوتقة التى أنتجت سبيكة واحدة. من ذلك المزيج العبقرى أضفت عليه من خبراتها الحضارية الشئ الكثير. ولم يقتصر دور مصر فى صياغة الحضارة العربية الإسلامية على ذلك الظرف التاريخى وحده، بل عادت مصر تلعب الدور الأساسى فى تغذية ذلك التراث العربى الإسلامى بمؤثرات جديدة مكتسبة من الغرب، وعلى أرض مصر وساحاتها الثقافية دار حوار من نوع جديد بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارة الغربية منذ منتصف القرن التاسع عشر وطوال العقود الأولى من القرن العشرين.

فلا غرابة - إذاً - إذا قلنا أن مصر مهيأة للعب دور مركزى لبناء الحوار بين الحضارات فى عالم تشابكت أطرافه وربطته ببعضه البعض صلات الجوار بالمعنى الواسع لتلك الصلات على نحو ما أشرنا من قبل، وذلك بهدف إقامة علاقة حسن الجوار على أسس متينة تهئ المناخ الملائم للتعاون والإعتماد المتبادل بين الشعوب، وتطرح سبلا جديدة لحل الصراعات بالطرق السلمية لتجنيب العالم ويلات الحروب.

ولكن لعب مثل هذا الدور المركزى يتطلب تحقيق الشروط الضرورية التى تجعل الحوار بين الحضارات يفتح الطريق أمام التواصل والتكامل والتمازج، وبعض هذه الشروط يتعلق بمصر ذاتها، وبعضها الآخر يتصل بالمجال الإقليمى، ثم المجال الدولى .

وما يتعلق بمصر يحتاج منا إلى إيضاح، فما نقصده بمصر ليس الدولة المصرية بمؤسساتها وأجهزتها فحسب، وإنما يضاف إليها مؤسسات المجتمع المدنى، والهيئات الأكاديمية، وأجهزة الإعلام غير الحكومية (وخاصة الصحافة)، والمنظمات المعبرة عن حركات إجتماعية وإنسانية دولية، كل هؤلاء يمثلون –فى رأينا– العناصر والوحدات المعبرة عن مصر، والممثلة لها فى الحوار بين الحضارات. وحتى تتهيأ مصر للعب دور مركزى فى بناء هذا الحوار لابد من تقبل الدولة المصرية لشراكة هذه الوحدات من ناحية، وإزالة كل المعوقات التى تحول دون مشاركتها الدولة على قدم المساواة من ناحية أخرى. فيجب أولا توسيع نطاق المشاركة السياسية الشعبية فى إطار نظام ديمقراطى سليم يكفل الحريات الأساسية للشعب وفى مقدمتها حق التعبير وحق إختيار نواب الشعب فى البرلمان دون تزييف إرادة الناخبين، ورفع المعوقات التى تشل حركة العمل العام السياسى والإجتماعى والأكاديمى ممثلة فى الإجراءات الإستثنائية وقوانين الطوارئ، وغيرها من القيود التى تحد من حرية الحركة بالنسبة لمؤسسات المجتمع المدنى وقنوات التعبير (الصحافة والإعلام) وتقيد البحث الأكاديمى عن طريق الحد من إستقلال الجامعات، وإذا تحقق هذا الشرط تصبح مصر طرفا مهيأ للحوار، أما إذا ظل الحال على ما هو عليه الآن فسوف يتعرض دور مصر المرتقب للتهميش، وتفقد بذلك الدور الذى أتاحه الظرف التاريخى للمساهمة فى صياغة نظام عالمى جديد .

أما ما إتصل بالمجال الإقليمى من شروط ضرورية حتى تستطيع مصر لعب الدور المركزى المرتقب فى بناء الحوار بين الحضارات، فيتمثل فى ضرورة تحقيق موقف عربى موحد من قضية الحوار بين الحضارات، لأن مصر إنما تشترك فى الحوار ممثلة للحضارة العربية. وهنا يجب الإستفادة من المنظمة الإقليمية العربية (جامعة الدول العربية) على ما بها من سلبيات للتوصل إلى صيغة عربية واحدة للحوار مع الحضارات الأخرى مع ضرورة إتاحة الفرصة للمؤسسات غير الحكومية للمشاركة فى إعداد هذه الصيغة مثل الإتحادات المهنية وإتحادات الجمعيات الأهلية والجمعيات العلمية، وأجهزة ومؤسسات الإعلام بحيث تأتى الصيغة العربية الواحدة تعبيرا دقيقا عن رؤية الشعوب العربية وعن قناعاتها. ولعل نقطة البدء فى تنظيم هذا الحوار العربى – العربى، هو توفير المناخ الديمقراطى أولا، وتنقية المجال العربى من شوائب الفرقة والتنافر، فلا أمل فى إقناع الآخر بوجهة نظرنا إذا كنا نعجز عن حل مشاكلنا وعن تكوين رأى عام موحد إزاء قضايانا .

ولما كنا شركاء حضارة مع قوى الجوار الإقليمى الإسلامية (إيران - وتركيا - وباكستان وغيرهما من البلاد الإسلامية)، فإن نجاح دورنا فى بناء الحوار بين الحضارات يتطلب التنسيق مع الدائرة الإسلامية من خلال منظمة الدول الإسلامية والمؤسسات المدنية البارزة فى تلك البلاد، والمؤسسات الإعلامية والأكاديمية فيها، فإغفال هذا التنسيق قد يؤدى إلى تضارب الرؤى وإضعاف الجانب العربى فى الحوار وتعرضه للتهميش. أما عن الشروط الخاصة بالمجال الدولى، فنعنى بها إدارة حوار ضرورى مع الدائرتين الإفريقية والآسيوية ، وتجمعنا بالدائرتين وشائج قربى حضارية، وتاريخ طويل من النضال المشترك، كما جمعتنا معهم منظمات مشتركة من خلال حركة عدم الإنحياز و منظمة الوحدة الأفريقية، كما يجب أن يمتد هذا الحوار ليشمل شعوب أمريكا اللاتينية التى تتشابه أوضاعها مع أوضاعنا، وظروفها مع ظروفنا. وبعبارة أخرى، لابد أن يسبق حوار الجنوب – الجنوب الحضارى، الحوار مع الشمال الحضارى، ولابد من التنسيق مع شعوب الجنوب (آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية) قبل إدارة حوار واسع بين الحضارات، ويعود ذلك -فى رأينا- إلى وجود هموم مشتركة عند تلك الشعوب تتصل بالتنمية الإقتصادية والإجتماعية والسياسية والتعرض لخطر التهميش فى ظل النظام العالمى الجديد، والتوجس خيفة من الآثار السلبية للعولمة التى قد تصيب هذه المجتمعات. إن البدء بحوار الجنوب – الجنوب بالغ الأهمية ليس فقط عند إعداد جدول أعمال الحوار بين الحضارات، ولكنه بالغ الأهمية بالنسبة لتحديد ركائز وأبعاد وأهداف ذلك الحوار.

إن التهوين من شأن هذه الشروط الثلاثة الضرورية لتهيئة مصر للعب دور مركزى فى حوار الحضارات من الخطورة بمكان، فقد يؤدى إلى تفريغ محاولة الحوار من مضمونها تماما، ويضعف الطرف الحضارى فى الحوار الذى تمثله مصر. ورغم ما قد يبدو لأول وهلة من صعوبات تعترض طريق تحقيق هذه الشروط، إلا أنها ليست مستحيلة التحقيق، فالأطر التنظيمية على الأصعدة الثلاثة قائمة، ولا تحتاج إلا إلى إعادة تنظيم على ضوء سياسات جديدة ليست صعبة التحقيق لو توفرت النية الخالصة للإصلاح.

فإذا قدر لهذه الشروط الثلاثة أن تتحقق، وتهيأت مصر للعب دور مركزى فى بناء الحوار مع الحضارات فإن سيناريو الحوار - فى تصورنا - يجب أن يدور فى الإطار التالى:

- ضرورة وجود أخلاقيات مدنية عالمية توجه العمل على الصعيد الدولى وتحدد قواعد السلوك التى تكفل تحقيق "حسن الجوار" العالمى مثل إحترام الحياة، والحرية، والعدل، والإحترام المتبادل، والإيمان بإمكانية خدمة البشرية جمعاء على نحو أفضل من خلال الإعتراف بمجموعة من الحقوق والمسئوليات المشتركة، وفى طليعتها الإعتراف بحق الناس جميعا فى حياة آمنة، ومعاملة عادلة، وفى أن تتاح لهم الفرصة لكسب أسباب العيش المناسبة وتحقيق قدر معقول من الرفاهية، وحقهم فى التعبير بمختلف الوسائل المتعارف عليها، وفى العيش فى بيئة طبيعية سليمة. وعليهم واجب الإسهام فى تحقيق الصالح العام المشترك، والحرص على ألا تؤثر أعمالهم سلبيا فى أمن ورفاهية الآخرين، تعزيز العدالة ونبذ كل وسائل التفرقة والتمييز على أساس الجنس أو الأصل العرقى أو الدين، وحماية مصالح الأجيال المقبلة باتباع التنمية المستديمة، وحماية البيئة، وكذلك الحفاظ على تراث الإنسانية الثقافى والفكرى، والعمل على القضاء على الفساد.
- البحث عن الكيفيات والوسائل التى تساهم فى تأصيل الثقافة العربية عبر التركيز على العناصر الإيجابية منها والأساسية التى تسمح بأن يكون لها دور وموقع متميز فى ثقافة العصر، وذلك من خلال خاصية التواصل والتمازج

والتكامل، واستيعاب الثقافة العربية لثقافة العصر، والتعبير عنها بما يخدم مصالحنا دون الجور على مصالح الآخرين، أو القبول بهيمنة الثقافات الأخرى.

- يتخذ الحوار طابعا جدليا يكشف النقاب عن مختلف القيم الثقافية وإعادة إكتشاف القيم الأصلية العالمية المحتجبة وراء مظاهر إجتماعية معينة لها خصوصيتها وذاتيتها، ولكنها تلعب دورا إيجابيا فى إثراء الثقافة العالمية وتحقيق التكامل الثقافى فى سياق الإحترام المتبادل، والتسليم بحق الآخرين فى العيش الكريم الآمن.
- وضع إطار مقبول لتنمية عالمية متوازنة تهدف إلى تضييق الفجوة بين الأغنياء والفقراء بالصورة التى تجعل من الإقتصاد عاملا مدعما للأمن العالمى من خلال تحقيق قدر معقول من الإستقرار الإجتماعى، على أن يكون هدف الحوار صياغة فلسفة إقتصادية جديدة متماسكة تعيد هيكلة مراكز القوة الإقتصادية بما يحقق مستوى متكافئ من الإعتماد المتبادل، والدرجة المتكافئة من الخطر المتبادل كضمان للأمن الإقتصادى العالمى. وبذلك يستعيد الإقتصاد وظيفته الحضارية فى خدمة الإنسان والمجتمع، وهى نتيجة لا يمكن الوصول إليها إلا فى إطار مشروع تنموى يعيد لشعوب الجنوب فاعليتها الحضارية، أى قدرتها على الإبداع والعطاء للمساهمة فى صياغة الحضارة العالمية الإنسانية.

ولا يعنى الحوار بين الحضارات على النحو المقترح إغراق منافى الخيال، أو تقديم تصور طوباوى لعالم مثالى يختفى فيه الصراع ليحل محله التعاون، تختفى منه ظاهرة الفقر والحرمان التى تضم الآن ما يزيد عن ثلثى سكان العالم ليحل محلها الوفرة والرفاهية. فالحوار فى حد ذاته ليس مستحيلا والسيناريو الذى إقترحناه هو محصلة أفكار طرحت هنا وهناك كلما جاء الوضع العالمى الراهن موضع البحث والدراسة، وكلما أحس شعوب العالم الثالث الأكثر فقرا ومرضا وجهلا بأنهم قد سقطوا من الحسبان وأصبحوا نهبا للدول الغنية، والنظام العالمى الجديد، والمؤسسات المالية الدولية، وأنه لا مخرج لهم من فخ الديون الذى وقعوا فيه .

لقد أضفت ثورة المعلومات والإتصال نوعا من الشفافية على ما يدور فى العالم من أحداث، أدت إلى علو شأن الوعى بالآخر عند الشعوب الفقيرة وما تتعرض له من نهب لمواردها فى إطار نظام عالمى لا يرحم.

لذلك كان الصدام واردا بل واقعا لا محالة ما بقى الحال على ما هو عليه، لذلك كان الحوار ضروريا فإذا تهيأ المناخ له كان ما قد يسفر عنه من نتائج ممكنا، بما فى ذلك إمكانية مشاركة مصر فى بناء أسس ذلك الحوار، تمارس فيه كل الأطراف المعنية دورها، من أجل فتح صفحة جديدة فى تاريخ البشرية يحل فيها التعاون محل الصدام، وتتاح الفرصة فيها لكل الشعوب أن تتمتع بحقها فى "حسن الجوار" فى الإطارين الجغرافى و الكوكبى دون أن تفقد القيم الأساسية لحضارتها، أو يتم إستيعابها فى حضارة أخرى أقوى.